
تفسير سورة
الفتح
الشيخ / هاني حلمي
Manhag.net

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم



الحمد لله وكفى وصلى الله وسلم وبارك على النبي المصطفى وآله المستكملين الشرفَ

ثم أما بعد:

فأسال الله تبارك وتعالى أن يمتن علينا بفهم القرآن وبتدبر القرآن

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يارحيم يارحمن

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك على حلمك بعد علمك،

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

تقديم

نتدارس بحول الله تعالى وقوته سورة الفجر وهي سورة مكية وعدد أياتها ثلاثون آية.

بدأت هذه السورة بالقسم فأقسمت بالفجر وبالليالى العشر وبالشفع والوترعلى أن الإسلام حق وأن البعث والحساب حق وضربت أمثلة بمن أهلكه الله من المعاهدين كعادٍ وثمود.

وذكرت تصورات الإنسان غير الإيمانية وسوء فهمه لاختبار الله له بهذه النعم وطبيعته فى حبه الشديد للمال.

ثم وصفت مشهدًا عنيفًا مخيفًا من مشاهد الآخرة وفيها يظهر جلال الله وتظهر الملائكة للحساب وتظهر جهنم أمام العصاة.

وفي الختام كان النداء للنفس المطمئنة بأن تعود إلى رضوان الله وجنته.

هذا هو ملخص السورة والموضوعات التي تطرقت إليها هذه السورة الكريمة.

سورة الفجر قلنا إنها من السور المكية وسميت هكذا لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى

{وَالْفَجْرِ} وقد ورد لفظ الفجر في بعض سور القران كسورة البقرة، وسورة الاسراء، وسورة النور، وسورة القدر.

فهذا هو الملخص العام لهذه السورة..
أما تحليل هذه السورة وتدبر آياتها فلنا فيه وقفات..

تحليل وتدبر الآيات

1_ ما المراد من الفجر ولماذا أقسم الله به وإلى أي شيء يرمز؟

المقطع الأول من هذه السورة العظيمة في قول الله تبارك وتعالى: {وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)} [الفجر/1: 5]

فالخمس آيات الأول التي تضمنت القسم، وخمسة أشياء أقسم الله عز وجل بها..

فالأول الفجر قال ابن عباس عنى به النهار وعبر عنه بالفجر، وقال علي الفجر الصبح الذى يبدأ به النهار.

وقالوا بل أراد صلاة الصبح.. صلاة الفجر، وقالوا أراد به فجر يوم النحر، قالوا فجر أول يوم من ذي الحجة.. وسوف يأتينا في تفسير الشفع والوتر كلام من هذا القبيل لذلك المفسرين قالوا بهذا التخصيص.

الفجر المقصود به فجر يوم النحر أو فجر عشر ذي الحجة أو فجر أول يوم من ذي الحجة لأن من قال أن الليالي العشر هي ليالي العشر الأول من ذي الحجة.

وقال قتادة إنه أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة. ونحن ذكرنا من قبل في قواعد التدبر أن هذا كله من اختلاف التنوع فأي شيء من هذا يصح به التفسير.

لكن في سياق الآيات ما يقرب ما ذكره ابن عباس من أن المراد به هنا أول النهار أو النهار

لأن الله بعد ذلك ذكر ليال كأن الفجر يريد به الأيام والليالي العشر يريد بها الليال فيجمع ما بين الأمرين ليدل على الزمان كله ليلاً ونهاراً.

أرجو أن تنتبهوا لهذا المعنى لأننا سوف نأخذ المعاني العملية من خلال هذه السورة الكريمة..

أقسم بالفجر لأنه انتقال من ظلمة إلى نور فأقسم الله به لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله عز وجل.

الله جل وعلا يقول: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ}[القصص:71]

قالوا أقسم به ليوضح هذا المعنى من معاني القدرة، وقالوا أقسم به لأنه يترتب عليه أحكام شرعية.

وكما نعلم أن الصيام يبدأ بدخول الفجر إلى غروب الشمس، فإمساك الصائم

يبدأ مع طلوع الفجر ويجب حينئذٍ على الصائم أن يمسك، يترتب عليه أيضًا مسألة وقت صلاة الفجر فهذان حكمان شرعيان عظيمان مترتبان على هذا الفجر.

لكن لو تكلمنا على معاني عملية الفجر يرمز إلى لأمل يرمز للنور بعد الظلام فيعطي للإنسان شيء من الرجاء.. ففي لفظ الفجر رجاء وأمل.. {وَالْفَجْرِ} ويبدأ به ثم بعد ذلك يذكر الليل ثم يذكر بعد ذلك الشفع والوتر. وهنا مناسبة نذكرها إن شاء الله بعد أن نتبين كل مدلول لكل آية من هذه الآيات.

تعرفنا على المراد من الفجر.. وعرفنا لماذا أقسم الله به.. وعرفنا إلى أي شيء يرمز..

هذة ثلاثة أشياء فهمناها في لفظ {وَالْفَجْرِ}.

2_ ما هي الليال العشر وما هو المراد من الشفع والوتر؟

بعد ذلك قال {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} قال قتادة والسدي ومقاتل وروى عن ابن عباس أنها عشر ذي الحجة،

{وَلَيَالٍ عَشْرٍ} قالوا أول عشر من المحرم، وقالوا العشر الأواخر من رمضان، وقالوا هي العشر التي أتمها الله على نبيه موسى {وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [الأعراف:142]، قالوا {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} القول الراجح من هذه الأقوال كما قال الشيخ ابن عثيمين وغيره إنها عشر ذي الحجة. قالوا ولماذا قالوا ليالٍ ولم يقل والعشر قالوا لأن إطلاق الليالي وإرادة الأيام هذا أمر معلوم في لغتنا ذات السعة في المدلولات.

فعشر ذي الحجة معلوم فضلها؛ فالنبيﷺ قال: "ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام فقالوا: يارسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله: "ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء" [الألباني، صحيح الترمذي (757)].

فعلى ذلك عشر ذي الحجة على قول الذين رجحوا هذا وهو قول الجمهور يكون المراد به فضل هذه الأيام

بعض العلماء قالوا إن الليالي المراد بها هي الليال العشر الأواخر من رمضان واستدلوا على ذلك بأن فيها ليلة القدر وأن المسلمين يختمون بها شهر رمضان الذي هو وقت فريضة من فرائض الإسلام فلذلك أقسم الله بهذه الليال..

ولكن قلنا الجمهور على القول بأن الليالى العشر هي عشر ذي الحجة ويؤيده ما أتى بعده فى قوله {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}.

3-القسم الثالث:

{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} قالوا *الشفع والوتر المراد بها الصلاة المشفوعة وهي الصلوات الزوجية.

*والوتر وهو الصلوات الفردية.

*لذلك قال بعض الناس الوتر المقصود به صلاة الوتر المعلومة.

*والبعض قال الشفع هما الركعتان اللتان يصليهما الإنسان قبل وتره.

*والبعض قال بأن الشفع هو يوم النحر وذلك يتماشى مع الليال العشر،

*قال يوم النحر يوم عشرة ذي الحجة والوتر هو يوم عرفة.

*ابن الزبير قال إن الشفع هو يوم منى الحادي عشر والثاني عشر والوتر هو الثالث عشر.

*الضحاك قال الشفع عشر ذي الحجة و الوتر هو أيام منى،

*والبعض قال أن المراد به العدد سواء الأعداد الزوجية أو الأعداد الفردية أي الشفع المقصود به العدد الزوجي والوتر المقصود به العدد الفردي فيكون بذلك جمع العدد كله.

لكن في هذا وردت بعض الأحاديث في بيان أن المراد بالشفع هو يوم عرفة فقد روى أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ "أن الشفع يوم عرفة، ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر"

ولكن فى هذا الحديث مقال.. أغلب المفسرين على القول بأن الشفع المراد به يوم النحر والوتر هو يوم عرفة أو المراد به العدد.. وهذان التفسيران أيضًا من التفسيرات التي ذكرنا أنها من باب اختلاف التنوع. اختلف المفسرون في الشفع والوتر ذكروا أكثر من عشرين قولاً، ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلاً.

والقول بأن الوتر هو الله والشفع هو المخلوقات هو قولٌ معتبرٌ يُمكن ترجيحه، أي أنه من هذا كله أن المفسرين قالوا كلامًا كثيرًا جدًا كما ذكرنا في يوم النحر ويوم عرفة، تجد من يقول لك الشفع الصفا والمروة والوتر البيت، الشفع مسجد مكة والمدينة والوتر هو بيت المقدس.

قالوا في مثل هذا أشياء كثيرة، لكن القول بأن الله هو الوتر، وأن النبي ﷺ قال: " إن الله وترٌ يحب الوتر " [صحيح الجامع (1830)] فهذا قولٌ أيضًا له اعتباره،

والقاعدة تقول: إذا كانت الآية تحتمل معنيين ولا منافاة بينهما، فلتكن لكل المعاني التي تحتملها الآية.

ماذا تقول القاعدة؟

قاعدة في علم التفسير

الآية إذا كانت تحتمل معنيين، وهذين المعنيين ليس بينهما تضاد إذًا هذا كله من اختلاف التنوع، إذًا لا مانع من أن نقول أن الشفع والوتر يشمل كل ذلك،

- الشفع آدم وحواء، والوتر هو الله.
- الشفع الليالي والأيام، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده.
- الشفع كذا والوتر كذا... كل الأشياء من هذا القبيل.
- الشفع كما قلنا من أقوى الأقوال في هذا أن نقول أن الشفع سائر المخلوقات {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } [الذريات:49] والوتر هو الله تبارك وتعالى الأحد الصمد.

أو ما ذكرناه مما يناسب تفسير الآيات التي قبلها من أن الشفع هو يوم النحر، والوتر هو يوم عرفة.

4-القسم الرابع:

الآية التالية: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} [الفجر:4] هذا القسم الرابع

- الليل قالوا أن الليل هنا المقصود به عموم الليل وهذا الذي رجحه القرطبي وتشهد له اللغة عموم الليل والليل مطلقًا.
- البعض قال لا؛ قال هنا المقصود بها شيء خاص، فالمقصود ليلة القدر.
- البعض قال ليلة مزدلفة، والذين قالوا بذلك راعوا سياق الآيات، فلو قلنا أن الليالي العشر هي ليالي ذي الحجة، وقلنا أن الشفع يوم النحر، والوتر هو يوم عرفة، فقالوا {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} إذًا المقصود به ليلة مزدلفة، ويكون الكلام هكذا يتكلم عن هذه الأيام الفضليات التي فيها أعظم المناسك وهو نُسك الحج.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} ما معنى يَسْرِ؟

- قالوا أي إذا أظلم،
- وقالوا إذا سار لأن الليل يسير بمسير الشمس،
- وقالوا المراد إذا سار فيه أهله.

ففي قوله تبارك وتعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} هل الليل الذي يَسْرِ؟

أي الفعل معناه هنا منسوب إلى الليل أي يسري هو الليل ذاهبًا.. يسير ويُظلم.. أم أن الفعل إذا يُسرى فيه، يُمشى فيه.

- الشيخ ابن العثيمين يقول: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} أي يسير، يبدأ بالمغرب وينتهي بطلوع الشمس، فهو يمشي زمنًا لا يتوقف، فهو دائمًا في سريان، فأقسم الله به لما في ساعاته من العبادات؛ صلاة المغرب، وصلاة العشاء، وقيام الليل وهو أشرف الأوقات والليل أشرف من النهار.

وفي الليل مناسبة عظيمة ولذلك شُرِّفَ على النهار وهو أن..

الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلث الليل الأخير فيقول من يسألني فأعطيه، ومن يدعوني فأستجيب له، ومن يستغفرني فأغفر له.

ولهذا نقول إن الثُلثُ الآخر من الليل وقت إجابة ينبغي للعبد أن ينتهزه، وقد جمع الله تبارك وتعالى في هذا القسم جميع الموجودات.

- قالوا القسم الذي في مفتتح سورة الفجر جمع جميع الموجودات، فشملت الخالق والمخلوق، والشفع والوتر إجمالاً وتفصيلاً، انفجار الفجر، وانتشار الخلق، وسريان الليل، وسكون الكون، والعبادات التي تكون في الليالي العشر.
- وقالوا جمع الله عز وجل في هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلا بما ذكر في هذا القسم من أمور.

ثم كان المقسم عليه أن قال الله جل وعلا { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ } [الفجر:5]

الحجر أي العقل، هل في ذلك قسمٌ لعاقل، لذي حلمٍ، لذي دين، لذي عِلم، لذي ستر، كل هذا روي في معنى الآية، وأصل كلمة حِجْر معناها المنع، وإنما سُمي العقل عقلاً لأنه يعقل أي يربط العقل حتى لا يكون شيئًا فوضويًا، أو حتى لا يكون شيء من الشطط، وسُمي حجرًا لأنه يمنع الإنسان، العقل يمنع الإنسان عن الوقوع في السفاهات ونحو ذلك لذلك يُسمى حِجر.

قوله {هَلْ} هل هنا في موضع إنا، وتقدير الكلام إنا في ذلك قسمًا لذي حِجر؛ أي يا جماعة شغلوا عقولكم وافهموا وتدبروا، فمن كان ذا لُبٍ عَلِمَ أن ما أقسم به من هذه الأشياء فيه دلائل على توحيد الله، على قدرة الله، فبالتالي ينبغي أن يُتأمل جدًا ويُتدبر هذا المفتتح لأن هناك معاني كثيرة جامعة لأشياء كثيرة، وترمز إلى أشياء كثيرة.

سورة الأمل والظن الحسن

لو أن أننا جمعنا ما بين الفجر في ضياءه وفي أمله وفي رجاءه، وبين الليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، جمعنا في هذا القسم، وجدنا أن الليل ذُكِرَ في هذا المفتتح مرتين، مرة بصيغة الجمع، ومرة بصيغة العموم، ليالٍ والليل.. ويُذكر الشفع، ويُذكر الوتر سواء كان على معنى العدد، أو كان المراد الخالق والمخلوق، فما الجامع بين هذه الأمور المذكورة في مفتتح هذه السورة؟

إنني أسمي سورة الفجر وسترون الفجر كيف يكون؛ أسميها

* سورة الأمل، سورة الظن الحسن، سورة حسن الرجاء، سورة النُصرة *.

هذه سورة الفجر، ولاحظوا أنها نزلت في مكة، في جو الاستضعاف نزلت الفجر لتقول بعد الليل الدامس سيكون فجرا، لتقول إنه

♥ سيحتاج الأمر منكم مجاهدة وعملاً دئوبا، ومواصلة لليل والنهار، {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}

♥ إنه سيحتاج منكم مراعاة للأزمان الفاضلة والشريفة ليكون محل رجاءكم في ربكم أن يتقبل منكم، وأن يُعتق رقابكم، وما من يومٍ أكثر من يوم عرفة عتقا.

فهذا يناسب الجو العام.. الكلام عن الحج والمناسك يُناسب ذكر الفجر.. الكلام على هذه الأوقات الشريفة التي هي محل لإجابة الدعاء، فيوم عرفة محل إجابة الدعاء، ومن أفضل الأيام بعد يوم عرفة يوم النحر، وفيه أعمال الحج الأعظم، وكذا الليل في ثلثه الآخر وهو يمضي من شيءٍ إلى شيء حتى يصل إلى أعظم ما فيه في الثُلث الأخير من الليل، ثم يتلوه الفجر بعد ذلك.

وكأن الإنسان يحتاج أن يمر بهذا النفق المظلم يمشي فيه شيئًا فشيئا حتى إذا أتى إلى ثُلثه الآخر تبدت له الأنوار، وظهرت الفيوضات، وسار شيئًا فشيئا، وتقرب أكثر فأكثر حتى لاح الفجر بعد سنين الظلمات.. فإلى كل بائس ويائس ومكتئب وقانط اقرأ سورة الفجر لترى الأمل قد بزغ نوره، لترى الرجاء في الله تبارك وتعالى فهل عندك من عقل لتفهم رسالة الفجر.

إن بعد الظلام يأتي النور

جاءت الرسالة بعد ذلك لتوضح لنا أن بعد كل ظلام يأتي النور؛ { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} [الفجر:6] هذه الآيات تتكلم عن السُنن الكونية من خلال ضرب أمثلة تاريخية، فيا من لم تروا سنة من سنن الله، انظروا إلى هذه المعاني، وتدبروا التاريخ، وانظروا كيف تكون سُنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول في الذين ظلموا، في الذين جاءوا بالظلام، والظُلم ظلمات.

انظروا ماذا صنع اللهُ بهم؟

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)} [الفجر/6: 14] لاحظوا هنا الله لما قال{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} لم يذكر هنا ماذا فعل بهم؟

ولا كيف فعل بهم؟ وذكر هنا عاد، وثمود، وفرعون، وهؤلاء ذكرهم في سورة الحاقة عندما قال

{ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10)} [الحاقة/5: 10]

ما هي العقوبة على من طغى؟

فذكر ما صنع بهم، وكيف صنع بهم؟ لكن في كلِّ موضع في القرءان يُذكَرُ فيه شأنُ عقوبة الله تبارك وتعالى لهؤلاء يأتي وصفٌ جديد، فهنا

- وصف عاد بأنها ذات العماد ولم يُخلق مثلها في البلاد.
- وبأنَّ ثمود كانوا قد جابوا الصخر بالواد.
- وبأنَّ فرعون كان ذا أوتاد.

فما معنى هذا؟

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} الخطاب هنا لكل من يُوجه إليه هذا الكتاب العزيز، البشر كلهم لا بل الجن أيضًا.. {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} عاد قبيلة معروفة في جنوب الجزيرة العربية أرسل اللهُ تعالى إليهم هودًا عليه الصلاة والسلام، فبلغهم الرسالة، ولكنهم عَتَوْا وبغوا وقالوا {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً..} فقال اللهُ تبارك وتعالى {.. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت:15] هؤلاء كانوا أهلَ كبرٍ، افتخروا بقوتهم، كانوا مُتكبرين بقوتهم، وعُتوهم، وبَطشهم، ولكنّ اللهَ بيَّن أنهم ضعفاء أمام قوة الله.

أرأيتم الفجر؟ هؤلاء ظلمة طغاة، جبابرة، متكبرون..

- لهذا قال اللهُ جلّ وعلا {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ}
- وعبَّر بقوله { الَّذِي خَلَقَهُمْ} ليُبيِّن ضعفهم، وأنه جل وعلا أقوى منهم لأنه الخالق سبحانه وتعالى وبطبيعة الحال الخالق أقوى من المخلوق.

قال: {.. أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16)} [فصلت: 15، 16]

- والذي فعل اللهُ بعادٍ، الله يقول: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ }
- ماذا فعل اللهُ بعادٍ؟ أرسل عليهم الريح العقيم، سخر عليهم الريح {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ} [الحاقة:7] فلذلك ترى هؤلاء قتلى كأنهم أمثال النخل الخاوي، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم.
- لماذا قال الله { أَلَمْ تَرَ} هذا الاستفهام؟

للفتِ النظر إلى عقوبةِ هؤلاء، ليعتبرَ بها من يعتبر ومن يتعظ، وقد قال اللهُ جل وعلا {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود:83] فقال: { إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}

ما معنى إرم ؟

- قال قتادة : أي الأرض.
- وقالوا: بل خصَّ بها أرضًا مُعينة.
- فقال عكرمة: هي دمشق.
- وقال محمد بن كعب: الإسكندرية.
- وقال كعب: إنها المدينة صنعها بن شداد بن عاد. أو إنَّ إرم أمة من الأمم، أو اسم قبيلة من القبائل.
- وقيل أنَّ كلمة إرم أي القديمة.
- وقيل أي الهلاك.
- وقال السُدِّي:إن الله رمَّهم رمًا فجعلهم رميمًا، فلذلك قال: إرم. أي صاروا كالرميم.
- وقال أبو عبيدة هما عادان، يعني عاد كانت قبيلتان عظيمتان، أوكان في التاريخ عادان، الأولى هي: إرم، وهي التي قال اللهُ { وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى } [النجم: 50] قالوا أرادوا بإرم ذلك.

إرم مُلخص هذا مكان، بلد من البلاد أو قبيلة من القبائل على ما ذكرنا.

ماذا تعنى {ذَاتِ الْعِمَادِ}؟ العلماء قالوا فيها أربعة أقوال.

- قالوا أي: ذات الطول حتى أنهم قالوا أنَّ الرجل منهم كان يبلغ اثنى عشر ذراعًا. يعني كان ضخمًا عملاقًا.
- وقالوا: ذات العماد: لأنهم كانوا أهل خيامٍ وأعمدة.
- وقالوا العماد: المقصود به: القوة والشدة. إرم ذات العماد أي ذات القوة وذات الشدة، أو ذات البنايات المُحكمة. كان لديهم كما صنع الفراعنة بعد ذلك. في هذه الإشارة بلا شك أنَّ هناك في هذه الأرض مما صنعوا وشيدوا ما ينبغي الالتفات إليه، وإلا ما ذُكِر على قول من يقول أنها رمز إلى البنايات المُحكمة،

لفظ إرم هو عطف بيان لعاد فإرم هي عاد يعني كلمة إرم المقصود بها عاد التي هي قوم هود كما قلنا، ووصفها بأنها ذات عماد، وأنها لم يُخلَق مثلها في البلاد هو وصف لها بالشدة والقوة فكانوا أقوى الأمم.

من أجل ذلك نحن نحتاج أن نقوم بعمل دراسة تاريخية كي نُقارن مقارنات مهمة من خلال دراسة قصة سيدنا هود وننظر في كيفية تعامله مع هؤلاء. ونحن اليوم في هذا الزمان ونحن نرى القوى الدولية التي تتمحور في القوى الواحدة التي تقوم بها دولة أمريكا، نحتاج إلى أن ننظر من خلال دراسة قصة سيدنا هود إلى كيفية التعامل مع هؤلاء الذين يطغون في الأرض ويفسدون فيها أشد الفساد.

والله عز وجل يقول { الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} ليس ثمة أمة خُلِقت مثل قوم عاد، فكانوا أصحاب أجساد قوية وطويلة وكان عندهم من البأس والشدة ما جعل خطاب القرءان يتوجه بهذا التصوير لقوتهم وبأسهم وشدتهم حتى قالوا { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت:15]

{ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} أي لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد فى البلاد، أو لم يُخلَق مثل قوم عاد في البلاد لطولهم، وشدتهم. أو لم يُصنع مثلهم في البلاد لأنها قوية ومُحكمة، ولذلك اغتروا وقالوا { مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} { الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}

وبعد ذلك انتقل خطاب القرءان للفريق الثاني؛ فريق ثمود، وثمود قوم نبي الله صالح، ومساكنهم معروفة الآن، والله سبحانه وتعالى يقول {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر:80] هؤلاء القوم أعطاهم الله أيضًا قوة حتى صاروا يخرقون الجبال { الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ} أي قطعوا الصخر ونقبوه، ونحتوه حتى جعلوه بيوتًا كما قال اللهُ جلّ وعلا {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء:149]

- وقالوا { الَّذِينَ جَابُوا} أي: طافوا لأخذ الصخر بالوادي، فهؤلاء الذين خرقوا الجبال والصخور وصنعوا تلك البيوت، وجابوا وادي ثمود، وهو من الأودية المعلومة أيضًا في شبه الجزيرة، هؤلاء أيضًا فعل اللهُ بهم ما فعل من العذاب والنكال، حيث قيل لهم {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ} [هود:65] ثم بعد الثلاثة أيام أخذتهم الصيحة، والرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين فعلينا أن نعتبر بهؤلاء المكذبين الذين صار مآلهم إلى الهلاكِ والدمار، وليُعلَم أنَّ هذه الأمة لن تُهلَك بما هلك به هؤلاء من الأمم السابقة، لأن النبيﷺ سأل الله ألا تهلك هذه الأمة بسنةٍ عامة ولكن قد تهلك هذه الأمة بأن يجعل الله بأسهم بينهم. لأجل ذلك دائمًا نقول لو أردنا النصرة، نبدأ بالألفة والوحدة.

سيكون البأس فيما بيننا وبين أنفسنا، فتجري الحروب والمقاتلات والصراعات، ويهلك بعضنا على أيدي البعض، وهنا تأتي الإشكالية، ولكن لا يكون الهلاك بشيء ينزل من السماء، أو ماشابه ذلك مما حدث مع عاد وثمود.

ثم كانت الثالثة، الفراعنة، {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} [الفجر: 10]

- قالوا الأوتاد أي: الجنود.

لذلك ذكر الله سبحانه وتعالى: { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [القصص:8]

جنود فرعون، سمي بذي الأوتاد لكثرة جنوده.

- وقال الحسن ومجاهد لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد، يشدها في أيديهم، وبمثل ذلك عذب فرعون زوجته آسيا بنت مزاحم، عندما آمنت حتى ماتت،
- وقيل الأوتاد البنيان، فسُمي بذي الأوتاد، لكثرة بنائاته، ومعلوم هنا الأهرامات والمسلات والأشياء التي شيدتها أيدي الفراعنة.
- وقال قتادة لأنه كانت له ملاعب على أوتاد وحبال، يُلعب له تحتها.
- قيل ذو الأوتاد، الوتد هو الذي يُوضع لتترسخ به الخيمة ونحو ذلك، هذا الوتد.
- قالوا أيضًا الوتد لكثرة نخله وشجره، حتى صارت هذه الأوتاد من كثرة وجود هذا النخيل، و تلك الأشجار، أنها صارت كالأوتاد في الأرض.

لكن المعنى، وفرعون ذي البنايات كما قلنا، أو ذي الجنود أو ذي الظلم والطغيان، يناسبه ما يأتي بعده،

من قوله:{ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ } [الفجر: 11].

الطغيان معناه مجاوزة الحد

- {طَغَوْا فِي الْبِلَادِ } زادوا جدا عن حدهم، واعتدوا على عباد الله، وهكذا شأن الفراعنة و شأن الحكام الظلمة الذين يتعدون الحدود، وينكلون بالضعفاء المستضعفين، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ } [الزخرف:54]
- {فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} [الفجر12]. أي بالكفر والقتل وسائر المعاصي.
- أكثروا فيها الفساد المعنوي، الذي يتبعه الفساد الحسي، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [الأعراف:96]

ولهذا قال بعض العلماء: { وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا } [الأعراف:56].

أي لا تفسدوها بالمعاصي.

إذن الفساد نوعان: هناك فساد معنوي، و هناك فساد حسي.

وعادة يأتي الفساد المعنوي ابتداءً، فتفسد بواطن الناس فتفسد جوارحهم، فيقعون في معاصي الباطن، ثم معاصي الظاهر.

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر:13]

- أي أن الله سبحانه وتعالى أنزل عليهم الأوجاع و عذبهم عذابا شديدا، وقوله: {سَوْطَ عَذَابٍ} أي قسط عذاب، كالعذاب بالسوط، هذا الكرباج، ضربوا به، كأنه كذلك.
- قيل {سَوْطَ عَذَابٍ} أي خُلطت لهم أنواع من العذاب، أو أنه سوط عذاب أي وجع من العذاب، أو كل شيء عذب الله به فهو سوط عذاب، كما قال قتادة.
- وقالوا: أي جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب.

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ}

أي أنزل سبحانه إنزالاً شديدًا على كل طائفة من أولئك الطوائف، نزل عليهم عُقيب ما فعلوه من الطغيان والفساد، صب عليهم سوط عذاب، مصداقا لقول النبيﷺ: "إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" [صحيح البخاري(4686)] وقولهﷺ: "بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا.. " [صحيح الجامع(2810)] قبل الآخرة.

{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: 14]

أي بالطريق أو بالإنتظار، {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}

يرصد من كفر به، يرصده بالعذاب، والخطاب هنا للنبيﷺ: ولأمته من بعده، أن عليهم أن يوقنوا بأن كل من طغى واعتدى وتكبر، فإن الله له بالمرصاد، سوف يعاقبه، وسوف يواخذه وسوف يقيم حجته عليه، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [محمد:10] فهكذا آية الله تبارك وتعالى في الذين ظلموا.

هذه الآيات الثلاث أو هذه الصور الثلاث ترمز إلى الليل الذي أتى من بعده النهار، أتى من بعده الفجر، فضربت هذه الأمثال، لطمئنة قلوب المؤمنين، ولكي يعلو يقينهم ويزداد في سنة ربهم التي لا تتخلف ولا تتبدل، فمهما أظلم الليل سيأتي ضوء الفجر، مهما كانت سنوات القهر، سيأتي من بعد تلك المحنة منحة، وبعد هذا العسر من اليسر الشيء الكثير، هذا يقين وهذا أمل وهذا رجاء، لا ينبغي لأي إنسان أن يبتعد عن ذهنه تلكم الصور، كلما شعر بقهر الواقع، فقال الله تبارك و تعالى: {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ* فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا* كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ

دَكًّا دَكًّا* وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا* وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر/13: 23]

{ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } [الفجر:15]

هذا الإنسان بغير إيمان هذا شأنه، إذا اختبره ربه بالغنى واليسر فأكرمه بالمال ونعمه، ووسع عليه من الأفضال، يقول حينئذ إن الله يحبني، إن الله اختصني، إن الله فضلني، ويظن أن ما أعطاه من الدنيا كرامة، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان، أيها الإنسان، إلا لمن أحب، فالإنسان هذا الذي ابتلاه الله جل وعلا بالخير، لم يلاحظ أن هذا الخير قد يكون فتنة {فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}

{ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ...} [الفجر:16] فضُيّق عليه في شأن الرزق، فابتُلي بالفقر والجدب.{..فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} فيتسخط.

والابتلاء من الله عز وجل يكون بالخير وبالشر:{ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء:35]

فيُبتلى الإنسان بالخير، ليبتلي الله شكره، أيشكر أم يكفر؟

ويُبتلى بالشر، ليتخبر الله صبره، أيصبر أم يجزع و يفجُر.؟

فالإنسان لا يمكن بأي حال من الأحوال، ألا يدور بين هاتين الدائرتين، دائرة الخير ودائرة الشر، بين خير يَسُرَه، وبين شر لا يسره ويشعر بضرره، والمؤمن يعلم أن {...كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } [آل عمران:7]

يقول قدر الله لا يأتي إلا بخير كل ما أتاني من سيدي وحبيبي وربي ومولاي وولي فهو حبيب إلى قلبي "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له" [صحيح مسلم (2999)] فلا وجه لأن يقول لا في هذا ولا في ذاك ربي أكرمن أو ربي أهانن بل عليه أن يعلم أن الأمر كله من الله تبارك وتعالى.. وعلى ذلك يعرف كيف يتعامل حال السراء فلا يغتر وحال الضراء فيصبر ولا يجزع.

فيقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك

{كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } [الفجر:17]

كلا إنه ليس الأمر كما يظن الإنسان وهنا يقف من يقرأ على كلا ثم بعد ذلك يستأنف بقوله بل..

كلا أي لا هذا ولا ذاك بصحيح

- {كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } يعني إني أهنت من أهنت وضيقت على من ضيقت لأنه لا يكرم اليتيم.. لا يعطيه حقه.. لا يعطي الضعيف ماله..
فلذلك كانت العقوبة من قبل الله تبارك وتعالى لأن الناس لم يُراعوا هذا المعنى في كفالة الأيتام فينزل العذاب وتنزل النقمة.
- {كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر:17، 18]
- {لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} قالوا انتقال وترقى من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل يعني قال ابتداءا تسخطًا {رَبِّي أَهَانَنِ} قال الله تبارك وتعالى وليته قال هذا فحسب بل إنه أيضًا جمع بين قبيح القول وبين قبيح الفعل.
- {لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} أنتم إذا أكرمكم الله بالنعم لا تعطفون على المستحقين للإكرام وهم اليتامى ولذلك قول الواحد منكم {رَبِّي أَكْرَمَنِ} ليس بصحيح بل الواحد منكم قد يبتلى بالجدب ويبتلى بالفقر وذلك من جراء أنه كمجتمع لا يقوم بحقه تجاه الضعفاء..

- {كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} فارتدعوا أيها الماديون الذين تقيسون مقاييس الأمور كلها بمقاييس المادة فالله جل وعلا يوسع الرزق اختبارا للعبد هل يشكر أم يكفر ويضيق الرزق إمتحانًا للعبد هل يصبر أم يجزع إنما أنتم أيها الماديون ترون أن في التوسعة إكرامًا وفي التضيق إهانة. كلا ليس الأمر كذلك.. نظريتكم المادية هذه أتتكم من حبكم للدنيا ومن اغتراركم بها ويشهد لصدق هذا أنكم تهينون اليتامى وأنكم لا تكرمونهم لضعفهم وعجزهم أمامكم وعدم الاستفادة المادية منهم فلذلك تصنعون معهم هذا.

{وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}

لا يأمرون بإطعامه لأنهم لا يرجون ثواب الآخرة..
{وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} لا يحث بعضكم بعضًا على إطعام الفقراء والمساكين... فإذا كان لا يحض غيره فإذا هو لا يفعله بنفسه.. فهو لا يطعم مسكينا ولا يحض على طعام المسكين.

- وها هنا إشارة إلى أنه ينبغي لنا إذا أردنا إصلاحًا إجتماعيًا إذا أردنا تغييرًا إذا أردنا وصفة قرءانية للتغيير الإجتماعي فلنبدأ بهذه المشاريع الإجتماعية من كفالة الأيتام والسعي لتنشئتهم تنشئة صحيحة سوية.. إكرام وكفالة للأيتام.
- و الأمر الثاني أن يحض بعضنا بعضًا على إطعام المساكين لأنهم فى حاجة.

والله تبارك و تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه

- و شاهد آخر أنكم لا تحضون أنفسكم ولا غيركم على إطعام المساكين وهم جياع أمامكم فهذا شاهد ثاني على أن قلوبكم تعلقت بالمادة وبالدنيا.

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ} [الفجر:19]

أي الميراث : {.. أَكْلًا لَمًّا} فتجدون هذا التطاول من كل متكبر في الأرض يأكل أموال الناس بالباطل حتى يأكل ميراث إخوانه. وكثيرًا ما يحدث ذلك من الرجال تجاه النساء فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية، وهن أحوج إلى مال الورث هذا وذلك لحب الدنيا في القلب، لأن الناس الدنيا قد استحكمت عليهم.
والله سورة الفجر نحتاجها في هذا الزمن المادي. الزمن الذي يأكل فيه القوي الضعيف.. يأكل فيه الصغير الكبير.. يأكل فيه الرجل حق المرأة.. أو قل إن بعض النساء صرن كالرجال يأكلن حقوق الرجال.. فنعوذ بالله من صنيع هؤلاء الذين يفترون ويتجبرون ويطغون.

- {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ} تجمعون في أكلهم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم وفي ذلك معنى قوله تبارك وتعالى {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} أي تجمعون بين هذا وذاك.. وتجمعون بين الحلال والحرام عالمين بذلك.. وذلك لحبكم للمال حبًا عظيما وهذا في غريزة الإنسان حب المال، فالذي يدعي أنه لا يحب المال إنه يتكلم عن خيال.

الله جل وعلا يقول: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات:8] لكن الإيمان إذا دخل القلب هذا
الذي يجعل الإنسان يتاجر مع الرحمن، أما غير ذلك فالإنسان فيه هذا الطغيان المادي، فتراه يحب المال كثيرًا يجمع حلاله إلى حرامه، يحب المال حب إجمام واستبقاء يحب أن يراه مجتمعًا لا يحب أن ينفقه يبخل به إلا أن ينفقه في شيء يعود عليه بنفع، وتحبون المال حبًا عظيمًا هذه طبائعكم أيها البشر. لكن المؤمن يأتيه إيمانه كقارب للنجاة من هذه الخصلة الذميمة التي تدل على الركون إلى الدنيا.

- {كَلَّا} فيقول مرة ثانية سبحانه وتعالى {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} [الفجر:21] مرة بعد مرة.. فتكسر كل شيء عليها.
- {كَلَّا} ليس الأمر كما تصنعون فتحبون المال، و تمنعون الطعام عن المساكين ولا تكرمون اليتيم.
- {كَلَّا} إن هذا صنيع من لا يعيش للآخرة، ولذلك ذكرنا الله جل وعلا بيوم القيامة {..إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} حتى {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه:107].. تدك الجبال فلا بناء ولا أشجار.. تمد الأرض يكون الناس عليها في مكان واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وحينئذ تأتِ القيامة بأهوالها..

وأول شيء {وجاء ربك} يا ويلي وويل أمي وأبي إن لم يرحمنا ربنا.

- جاء ربك العظيم الجليل والملائكة في صفوف متوالية متساوية.
- جاء ربك لفصل القضاء.
- جاء مجيئًا يليق به سبحانه وتعالى فلا يقال كيف يجيء على قاعدة أهل السنة الذهبية من أن الكلام في مثل ذلك في الكيفيات غير معقول والإيمان به واجب {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:11]

وجاء ربك والملائكة مصطافون صافون {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} [الفجر:23] فيؤتى بجهنم يومئذ كما في صحيح مسلم "لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها" [صحيح مسلم(2842)] {وجيء يومئذ بجهنم} على رؤس الخلائق يرونها ويضطربون لرؤيتها {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى} [النازعات:36]

♥ في هذا الوقت العصيب {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر:23] يتوب الإنسان ويقول الآن انتهى الأمر سأعمل صالحًا فيما تركت كلا ثم كلا حينها ولات حين مندم.. لا محل للندم.. فيتذكر ما عمل في دنياه وما قدم لآخرته {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} في الآخرة إنما ينتفع في الدنيا بمثل ذلك، فليتذكر من عنده شيء من عقل {يَوْمَئِذٍ} يوم يجاء لجهنم فيتذكر الإنسان فيتعظ ويتوب ولكن {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}. يقول الإنسان {..يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر:24].. يقول {يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان:27].

يتذكر الإنسان ولكن قد فات الأوان، إنما في الدنيا ما زال العمل في الإمهال يمكن للإنسان أن يستدرك أمره، كما قال مؤمن آل فرعون {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } [غافر:39]

متاع يتمتع الإنسان كما يتمتع المسافر بمتاع السفر حتى ينتهي سفره..

هكذا الدنيا فليعتبر معتبر ولينظر إلى أي مصير سيذهب.

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} [التكاثر:1، 2]

سمع أعرابي رجلا يقرأ هذه الآية فقال والله ما الذائر بمقيم, زرتم إذن لن يقيم فلابد من مفارقة هذا المكان {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ} إذا جاء الله في يوم القيامة وجاءت الملائكة صفوفا، وأحاطوا بالخلق وحصلت الأهوال وحصلت الأفزاع، يتذكر الإنسان أنه وعد بهذا اليوم وأنه أعلم من قبل الرسل وأنذر ولكن لم يزدجر لم يرعوي، فأين يكون له الذكرى في هذا اليوم الذي رأى فيه ما أخبر عنه يقينا.. {وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } بعيد أن ينتفع فالأمر انتهى.

♥ { يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } [الفجر:24] أي قدمت من حياتى لميعادي في الآخرة ياليتني قدمت العمل الصالح في الدنيا لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها.

♥ {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} [الفجر:25] أي يومئذ يكون ما ذكر من تلك الأحوال والأقوال والأهوال.

{ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} أي لا يعذب عذاب الله أحد بل عذاب الله أشد، فأي عذاب تلقاه في الدنيا لا يقاس، ولا محل للقياس أصلا بين ضنك وابتلاءات وقهر في الدنيا وبين عذاب الله.

♥ {وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ } [الفجر:26] الهاء هنا تعود على رب العزة ولا يوثق وثاق الله أحد، وهناك قراءة { لَا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ } يعني في هذا اليوم لا أحد يعذب عذاب هذا الرجل ولا أحد يوثق وثاقه، ومعلوم أن هذا الكافر لا يعذب أحد عذابه في ذلك اليوم لإنه يلقى على أهل النار في الموقف العطش الشديد، فينظرون إلى النار كأنها السراب وإذا بهم يلقون فيها بعد أن يلقون العذاب المر الشديد في عرصات القيامة..

ترى الواحد منهم يقول {..رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون:106، 107] فيقول الله {..اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون:108] فيقول الله {..اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } فأي إذلال أشد وأبلغ إذا كان أرحم الراحمين يقول لهم اخسئوا..

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ } يساقون {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} [الحاقة:32] ادخلوه في هذه السلسة تغل أيديهم.. ولا أحد يتصور الآن ما هم فيه من البؤس ما هم فيه من الشقاء والعذاب، إذن على الإنسان أن يستعد فيقول { لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ } [الصافات:61]

حتى لا يقول يومها {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}.. وينال هذا العذاب المهين المؤلم.

يا من فهمتم الدرس.. يا من تأملتم هذا الدرس.. عليكم أن تجتهدو ولا يحول بينكم وبين الاجتهاد ما قد ترونه في الأفق من ظلام أو من ظلم أو من قهر.. عليكم أن تحققوا هذه الوصفة القرآنية ليبزغ الفجر، لتُنَار أمامكم السبل فترون الصراط المستقيم، ولتستبين من حولكم سبل طرق المجرمين، حتى تصلوا إلى هذه الطمأنينة التي تتحل بها أنفس.. عليكم أن تحققو الوصفة العملية:

الواجب المطلوب تنفيذه

أولاً: الرجاء وحسن الظن بالله تبارك وتعالى.

ثانيًا: الاجتهاد في الطاعات وفي اغتنام المواسم الفضليات.

ثالثاً: اعلموا الفرق بين الخالق والمخلوق لتشعروا بالعجز ولتعرفوا الفرق بين الرب والعبد.

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } [الطور:35].
الفرق بين الخالق والخلق فحينئذٍ تذلوا وتنكسروا حينما ترون احتياجكم حينما ترون في أنفسكم الفقر إلى غيركم {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}.

ورابعًا: عليكم أن تواصلوا العمل ليل نهار..
فهكذا عند الفجر يحمد الناس السري.. الذي سار في جوف الليل.. وهكذا الذي قام الليل وذاكر في الليل وتعبد في الليل { إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا } [المزمل:6].
خامسًا: عليكم بالاعتبار بمن سبقكم لتعلموا سنة الله الكونية وتستفيدوا من قراءة السنن.. فمن أعظم السبل للتعرف على الله تبارك وتعالى أن يلاحظ الإنسان السنن الربانية ويستفيد منها ويعتبر بها ويتعظ بها، فهذا من أعظم الأسباب التي تورث الإنسان اليقين.. التفكر في أحوال السابقين.
ثم سادسًا: عليكم بعدم الاغترار بالنعمة أو الافتتان بالنقمة.. بل عليكم أن تفهموا قانون الرب في الإعطاء والمنع، حتى يورثكم ذلك شكر النعمة والرضا والصبر عند المصيبة.
وسابعًا: حتى تقوموا بشيء عملي اهتموا جدًا بالكفالة الإجتماعية لليتامى وبإطعام الفقراء.
ثامنًا: إعطاء الفقراء وإطعامهم هذا المعنى الثامن.
المعنى التاسع: نفض الدنيا وحب المال خاصة من القلب لأنه قاطع عن الله تبارك وتعالى.
والأمر العاشر: مشاهدة مشاهد الآخرة وجعل الآخرة منا على بال فحينئذٍ يوفق العبد لفجر جديد في حياته.. فلا يعذب هذا العذاب المهين بل تطمئن نفسه.

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ..} اطمئنت بالإيمان.. آمنت.. أجابت.. آمنت بوعد ربها.. رضت بتقدير ربها..
{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً } [الفجر:27]

- {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} إلى صادق وعد الله ووعيده في الكتاب والسنة.
- يا من آمن واتقى وتخلى عن الشرك والشر.
- يا أيتها النفس التي اطمئنت بذكر الله، وقرت عينا بحب الله وبحب رسول الله ﷺ.

{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}.
- ✓ ارجعي إلى جسدك عند البعث في القيامة.

- ✓ ارجعي إلى ربك عند الموت في الدنيا.
- ✓ ارجعي إلى ثواب ربك في الآخرة.
- ✓ ارجعي إلى الله.. ارجعي وأنتِ راضية عن الله، والله من قبل راضٍ عنكِ فعلامة رضاه أن يرضى العبد عنه.

" ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ، رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا" [صحيح مسلم(34)]

يقال هذا القول للإنسان عند النزع في آخر لحظة من الدنيا، يقال لروحه اخرجي أيتها النفس المطمئنة،

- اخرجي إلى رحمة من الله ورضوان فتستبشر وتفرح ويسهل خروجها من البدن لأنها بشرت بما هو أنعم مما في الدنيا كلها.

فلموضع صوت في الجنة خير من الدنيا وما فيها.. وحينئذ تخرج هذه النفس الراضية المرضية.

{ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي } [الفجر:29] في زمرة عبادي الصالحين المخلصين وانتظمي في سلكهم وكوني في جملتهم.

- { وَادْخُلِي جَنَّتِي } [الفجر:30] إنها تدخل هذه النفس المطمئنة جنة الدنيا وتدخل جنة الآخرة، جنة الدنيا وهذا هو الشوق والنعيم والقرب ولذة الإيمان وحلاوة الإيمان وجنة الفردوس التي أعدها الله لأوليائه، "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" [صحيح مسلم(2825)].. { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة:17]
- { فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } فنسبها الله تبارك وتعالى إلى نفسه تشريفًا وتعظيما.

قال رجل للرسول ﷺ: " أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال لقد سألت عن عظيم.." وكيف لا يكون عظيمًا {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران:185].. قال: "..وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت.." [حسنه الألباني، تخريج مشكاة المصابيح(28)]

فالدين يسير على من يسره الله.. {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ} [الليل:8] لكن الذي يحول النفس الأمارة بالسوء والشهوات والشبهات، فإذا تخلص الإنسان من هذه الظلمات داخل نفسه لاح الفجر.

- ✓ هذه السورة بينت لنا فضل الليالي العشر من أول ذي الحجة إلى العاشر منه على القول بأن الليالي العشر لليالي ذي الحجة والشفع والوتر على ما ذكرنا.
- ✓ وبينت مظاهر قدرة الله في إهلاك الأمم العاتية والشعوب الظالمة وهذا مستلزم لقدرته تعالى على البعث والجزاء والتوحيد والنبوة.
- ✓ وبينت لنا أن عذاب الله شديد وأنه سبحانه وتعالى بالمرصاد، لذلك علينا بالحذر من الانحراف عن سبيل الله والتحاكم لغير شرع الله.
- ✓ هذه السورة رابعًا بينت لنا النظرة المادية، وبينت أنها لم تكن حديثة عهد إذ عرفها الماديون في مكة قبل أربعة عشرة قرنا.
- ✓ بينت لنا وجوب إكرام اليتامى والحض على إطعام الجياع من الفقراء والمساكين.
- ✓ والأمر السادس: أوجبت إعطاء المواريث على قانون الشريعة لمستحقيها ذكورًا أو إناثًا صغارًا أوكبارًا.
- ✓ سابعًا: ندد بحب المال الذي يحمل على منع الحقوق ويدخل الدنيا في القلب فتخرج الآخرة.
- ✓ ثامنًا: قررت المعاد بعرض شبه تفصيلي ليوم القيامة.
- ✓ تاسعًا: بينت اشتداد حسرة المفرطين يوم القيامة أن فرطوا في طاعة الله وطاعة رسوله.
- ✓ وأخيرًا: كما بدئت ببشارة الفجر انتهت ببشارة النفس المطمئنة بالإيمان وذكر الله ووعده ووعيده عند الموت.

فنسال الله عز وجل أن يكون عمرنا فجرا وأن يكون ما مضى من أعمالنا كان ليلاً مضى، ونبدأ من هذه الأيام المباركات فجرًا جديدًا في حياتنا.

نسأل الله جل وعلا أن ينفعنا بما قلته وما سمعتموه وأن يكون حجة لنا لا علينا.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أشهد أن لا إله الا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.